بســـم الله الرحمن الرحـيم

عمـارة صـــلاح زيتـون

حضـرات السادة الأفاضـــل

عندما دعانى المهندس أحمد زيتون لالقاء كلمة فى هذه الندوة شعرت بفخر وامتنان كبيرين • بفخر فـــى أن اشارك هذا الجمع الكبير فى الاحتفاء بالمهندس صلاح زيتون • وامتنان فى أن أتيحت لى الفرصة للتحـــدث عنه فانى أدين له بالشئ الكثير • وأحسبنى لاأتجاوز الحقيقة اذ قلت أن المهندس صلاح زيتـــون كـــان له أكبر الاثر فى تحديد المسار الذى سارت عـليه حياتى • لقد كان فضله على كبيرا •

يشكل فكر المعمارى عاملان أساسيان أولهما امكانياته الذاتيه وقدراته على الخيال والابداع التشكيلى وهـــو مـا قد يسمى بمواهبه الخاصة • أما العامل الثانى فهو التيارات الفكرية التى أحاطت بالمعمارى فى فـترة تكوينـــه ونضوجه والتى لابد أن يكون لها أثرها فى تشكيل فكره وتحديد اتجاهاته •
واذا ما أردنا أن نتحدث عن عمارة صلاح زيتون ، كان علينا أن نتعرف أولا على التيارات والاتجاهـــــات المعماريه التى كانت سائدة فى فترة دراسته وبعد تخرجه وكـيف تاثر بها • كذلك وجـب علـينا أيضا أن نتعرف على طبيعة شخصيته وامكانياته وقدراته الذاتية •

يمكن تقسيم التيارات الفكريه التى كانت سائدة فى مصر خلال فترة الثلاثينيات والاربعينيات ـ وهـى فـــترة التكوين الفكرى للمهندس صلاح زيتون ـ الى تيارين رئيسين ينطوى تحت كل منهما مذاهب وتقسيمات شـــتى أولهما هو الفكر المصرى الخالص.وثانيهما هو الفكر الاجنبى الوارد الينا من الغرب خلال العديد مـن القنـوات واستقر فى مصر من بدايات القرن التاسع عشر ووجد فيها تربه خصبه لكى تمتد جذوره وترتفع منهـا سيقانهوفروعه•

ولنبدأ بالتيار الفكرى المصرى الخالص • لقد سار هذا التيار فى اتجاهيين مختلفين شبه متعارضيين ويمـــثلان فى الحقيقة أزدواجية فى العقل المصرى Dualism • أولهما ماقد نسميه Cult of the volk أو التوجه القومى وهو احساس الفرد بذاتيته من خلال أنتمائه الى قوم معينين ـ فى حالتنا هذه كان القوم هم الأمه الاسلامية ـ فالقومية العربية التى نادى بها البعض فى أحقاب لاحقه لم تكن قد تبلورت بعد فى ايدولوجيه واضحة المعالم •

اما الاتجاه الثانى فهو Cult of the River أو التوجه نحو المكان وليس القوم • والمكان هنا النهر ; نهر النيل وهبته مصر • اذ يجد الفرد ذاتيته فى الانتماء الى وطن محدد يعيش تحت مظلته أكثر من دين وأكثر من عرق •

وظل هذين الاتجاهين يتناوبان الساحة الفكرية دون أن يكون لاحدهما الغلبة على الاخر ، كما ظل الفكـــر المصرى يتأرجح بين هذين القطبين مثل بندول الساعة • وكان لكل فرسانه ، فعبد الوهاب عزام وأحمد أمين باسلامياتهما من أبرز مفكرى الاتجاه الأول يقابلهما الحكيم وحسين فوزى فى الاتجاه الثانى • ومن الملاحظ أنه فى الفترات التى ساد فيها الفكر الاسلامى اتجه عقلنا شرقا ، وفى الفترات التى ساد فيها الفكر النهرى اتجـــه عقلنا غربا •
كان لابد أن تنعكس هذه الازدواجية الفكرية على العمارة فرأينا ازدواجية فى الطراز : عمارة اسلامية تقابلهـــا عمارة فرعونيه • ويبلغ التناقض أقصاه عند تصميم مبنيين ذاتا نشاط واحد أعطى لاحدهما الطابع الاســـــلامـى

وأخذ الثانى الطابع الفرعونى • فمحطة سكة حديد القاهرة مثلا ذات طابع اسلامى ومحطة الجيزة لها طابع فرعونى وضريح مصطفى كامل اسلامى الطراز وضريح سعد زغلول فرعونى الطراز • وكلية الهندسة بجامعة عين شمس اسلامية الطراز بينما كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية فرعونية الطراز وهكذا •

ولقد كانت هناك محاولة لفض الاشتباك مكانيا • فصدر فى يوم ما قرار وزاريا بأن تكون المبانى العامة شمال المنيا اسلامية وجنوب المنيا فرعونية ولكن لحسن الحظ لم يكتب لهذا القرار عمرا مديدا • كما كانت هناك محاولة لدمج هذين الطرازين فى طراز واحد سمى "بالطراز الفؤادى" نسبه الى الملك فؤاد ملك مصر فى ذلك الوقت • ولكن لم يكتب لهذه المحاولة نجاح يذكر ولم تكرر مرة أخرى ويمكن لحضراتكم مشاهدة هذه المحاولة الفريدة عندما تخرجون من هذه القاعدة وتشاهدون مبانى المعرض حول دار الأوبرا — السراى الكبرى والسراى الصغرى وغيرها — وصاحب هذه المحاولة هو المرحوم مصطفى باشا فهمى •

أما التيار الرئيسى الثانى وقد هب علينا من الغرب فى وقت استكملت فيه الحضارة الغربية كل مقوماتها وصارت بحق حضارة العصر على مستوى العالم وأصبحت مهيئة لانطلاقها المذهل العالى وجاءت الينا ثقافيا ومعمارياً خلال العديد من القنوات ، منها التواجد الغربى المكثف والمتزايد فى مصر ، ومنها أخذنا طوعا أو كرها بمقومات الحضارة الغربية فى الثقافة والادارة والتعليم والخدمات العامة ، ومنها استعانة حكامنا وحكومتنا وأثريائنا بأهل الفكر والعلم والفن والعمارة من الدول الغربية وعلى الأخص من فرنسا فى الفنون والاداب ومن انجلترا فى العلوم والصناعة ، ومنها أيضا ارسال الموهوبين من شباب المصريين فى ذلك الوقت لتعلم فنون الغرب وعلومة •

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى عمارة غربية خالصة أو بعمارة مصرية متأثرة تأثرا كليا أو جزئيا بعمارة الغرب فى مراكزنا الحضرية الكبيرة وعلى الأخص فى القاهرة والاسكندرية • عمارة لاتخطئها العين فى قاهرة اسماعيل بوسط المدينة أو قاهرة النصف الأول من هذا القرن فى الزمالك وجاردن سيتى • أو فى أحياء مدينة الاسكندرية • بل ان الانسان ليتساءل كيف وصلت هذه العمارة الى المدن المصرية فى الدلتا وفى أعماق الصعيد •

وهنا أيضا ينقسم هذا التيار الغربى الى اتجاهين شأنه فى ذلك شأن التيار المصرى الذى سبق ذكره • ولكن هذين الاتجاهين لم يكونا متكافئا القوة فأولهما قد اكتمل بنيانه ولكنه بدا وكأنه قد استنفذ أغراضه وفى طريقة الى الزوال • وثانيهما كان أكثر فتوة وحيوية ولكن لم يكن قد اكتمل نموه ونضوجه بعد • واذا استعرنا تعبيرات أهل السياسة فانه يمكن القول بأن الاتجاه الأول اتجاه محافظ والاتجاه الثانى اتجاه راديكالى • وقد كان الصراع بينهما ضاريا وعنيفا وهو امتداد أو صدى للصراع الذى كان دائرا بينهما على الساحة الأوروبية والامريكية ولكن النتيجه كانت محسومه لصالح الاتجاه الأكثر حداثه والأكثر تعبيرا عن روح العصر بايجابياته وسلبياته • وان كانت نتيجه الصراع بين الاتجاهيين قد حسمت فى أوروبا فى أواخر العشرينيات تقريبا الا أنها تأخرت فى مصر الى أواخر الأربعينيات أى بعد أوربا بحوالى عشرون عاما •

يمكن ان نسمى الاتجاه الأول المحافظ بالكلاسيكية الحديثه أو ما بعد الكلاسيكية Neu Classic وهى عمارة احتفظت بالقيم المعمارية الكلاسيكية مثل السيمترية والهارمونى والنسب الجميلة ولكن فى رداء أكثر بساطه من العمارة الكلاسيكية القديمة ومن أمثلتها مبانى جامعة القاهرة ودار القضاء العالى ومصلحة التليفونات ومبنى نقابه المحامين — قبل أن تمتد اليه يد التدمير — لأستاذنا الكبير على لبيب جبر والعديد من الفيلات التى أقامها هذا المهندس المعلم الفذ وكوكبه من زملائه •

أما الاتجاه الثانى فكان ثورة على الكلاسيكية بكل أشكالها واتجاهاتها الحديث منها والقديم ، ودعوة الى التحرر منها واستبدالها بعمارة معاصرة تستخدم الامكانيات الهائلة للعلوم والتكنولوجيا الحديثه فى تصنيع مواد البناء وفى تطوير نظم الانشاء وتطلق العنان للخيال للابداع والابتكار فى التشكيل والتكوين الفراغى والمعمارى ، وتعبر عن روح العصر وتعمل على تحقيق الاحتياجات المتنوعة للمجتمع الحديث • لقد كان هذا الاتجاه

وليد المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتى أرجعها صلاح زيتون فى كتابه الى الثورة الفرنسية والثورة الصناعية وتوابعهما • بعبارة أخرى انه بينما عبر الاتجاه الأول عن الجمال الكلاسيكى الاستاتيكى التقليدى فقد عبر الاتجاه الثانى عن الاثارة الديناميكية الحديثة •

أدخل هذا الاتجاه فى مصر فى منتصف الثلاثينيات على يد أستاذنا الكبير الدكتور سيد فهمى كريم - أمد الله فى عمره - بعد عودته من بعثته فى سويسرا • وكان لشخصية هذا الرجل وقدراته الذهنية والمعمارية الكبيرة وملكاته فى الحديث والاقناع أثره الكبير فى جذب طلاب العمارة وشباب المعماريين اليه والى مدرسته الفكرية فى ذلك الوقت • فمن منا يأبى أن ينتمى الى زمانه وأن يشارك فى عمارة عصره ويفضل الانسحاب الى ماضيه •

هذه هى التيارات المعمارية باتجاهاتها المختلفة التى صاحبت المهندس صلاح زيتون فى فتره طلبه للعلم وفى فتره تكوينه المعمارى الأول • وقبل أن نستطرد فى بيان تأثير هذه التيارات المختلفة على البناء الفكرى للمهندس صلاح زيتون • يجدر الاشارة هنا الى تيارين اخرين أحدهما كان فى ارهاصاته الأولى على يد أستاذنا الجليل حسن فتحى وزميله رمسيس ويصا واصف ، وفلسفتهما معروفه لنا جميعا ولا داعى لذكرها • والتيار الثانى لم يكن قد ولد بعد وهو الدعوة الى احياء التراث وعدم الانسياق بصورة عمياء وراء التيارات الغربية الوافدة اذ أن عمارتنا يجب أن تتبع من ذاتنا الممتدة من حاضرنا الى ماضينا الثرى الطويل • وهذا الاتجاه لا يدعو الى عمارة مسطحة وليدة الحاضر فقط • بل يدعو - وان كان بطريقة غير مباشرة - الى أن يكون الزمن بمعنى Time هو البعد الرابع فى التكوين المعمارى المصرى • ويقود هذا التيار زميلنا الكريم الدكتور عبد الباقى ابراهيم •

كان موقف المهندس صلاح زيتون فى السنوات الأخيرة من هذين التيارين مختلفا فهو وان كان معجب أشد الاعجاب بروسانسيه عمارة فتحى وحساسيتها الفائقة وانتمائها بكل المعايير الى وجداننا الداخلى الا انه لا يرى فيها حلا لمشكلات المجتمع المعاصر اقتصاديا وعمرانيا • ومازلنا نذكر حوارهما على صفحات مجلة الأهرام الاقتصادى ، وما زلت أذكر انبهاره بعمارة قرية باريز بالوادي الجديد التى صممها حسن فتحى منذ عدة سنوات بعد زيارته لها ودعوته الحارة للحفاظ على هذه المبانى واعادة استخدامها بعد أن طال اهمالها •

أما الاتجاه الثانى وهو الدعوة الى احياء التراث فلم نلمس من المهندس صلاح زيتون معارضه له ، بل رأيناه يستخدم بعض المفردات والعناصر التراثية مثل الافنية الداخلية Inner Courts والمشربيات فى عمارته وفى التنسيق الداخلى بها بعد تطويعها لتلائم روح العصر • وهذا يعنى أن بعض القيم المعمارية التراثية التى جاءت وليدة تجارب الأجيال المتعاقبه قد يكون لها مكانها الطبيعى فى العمارة المصرية المعاصرة •

أمام هذه التيارات الفكرية المتباينة والتى كانت سائدة فى فترتى الثلاثينيات والاربعينيات لم يجد المهندس صلاح زيتون وأبناء جيله صعوبة تذكر فى اختيار التيار الأكثر حداثه والأكثر حيوية وهو تيار العمارة المعاصرة •

لقد كان لهذه العمارة مدارس ومذاهب شتى أفاض المهندس زيتون فى شرحها فى كتابه الجامع " عمارة القرن العشرين " والتى قادها الأربعة الكبار رايت وميس فان دى روه ولاكوربوزييه وجروبيس ومعهم مجموعة أخرى أقل شهرة وأقل تأثيرا مثل التو وسيرت وشيرماييف •

وتبع هذا الجيل الرائد أجيال أخرى ذهبت بالعمارة المعاصرة كل مذهب • وكان الصراع الفكرى بين هذه المذاهب على أشده فى أوروبا وأمريكا وكانت مصر فى شبه معزل عن هذه المعركة الكبرى - معركة عمارة القرن العشرين - وبدت لنا كأنها حرب بعيدة لا ناقة لنا فيها لا جمل • ولكن كانت تصلنا أنباؤها فى المجلات المعمارية المختلفة التى وردت الينا فى ذلك الحين • وقليل منا تفتح ذهنه وخياله على هذه العمارة الحديثة بمدارسها المختلفة وعمل على الاتصال بها والمشاركة الفكرية فيها • ولكن أغلبنا اثر السلامة

وفضل أن يبقى فى منطقة الحياد فبنى عمارة حيادية لا لون لها ولا رائحة • وقد ساعد على حيادية العمارة المصرية وعدم مشاركتها مشاركة ايجابية فى تشكيل العمارة الحديثة هو أن جيل العملاء Clients خصوصا فى النصف الثانى من هذا القرن كان أقل ثقافه من الأجيال السابقة له • ولم يصر فى عمارته على الابتكار والابداع بل كان فى كثيرا من الأحيان رافضا لهما • وهذا قد يفسر لنا كيف أن أجمل مابناه المهندس صلاح زيتون كان إما فيلاته الخاصة أو مبانى مملوكة لجهات أجنبية أكثر حسا بالثقافة مثل الكلية الأمريكية بالمعادى هذا باستثناء طبعا صالة الألعاب المكشوفة بمدينة نصر •

أمام هذه التيارات الجارفة للعمارة المعاصرة إما أن يتأثر المعمارى الشاب تأثرا كبيرا ومباشرا بها ويسير فى ركاب ما ارتضاه منها ويصير داع من دعاتها • وقد رأينا هذا التأثير على المعماريين الذين وقعوا فى دائرة نفوذ المعماريين الكبار من أمثال رايت وميس فان دى روه وكيف تحولوا الى تكرارية شكلية دون مضمون لهؤلاء العمالقة • وأما أن يفتح المعمارى فكره وخياله على فلسفات العمارة الحديثة ومذاهبها ويحاول استيعابها لكى تصير روافد ظاهرة أو باطنه لابتكارته الذاتية • ولا شك أن التكوين الذاتى للمعمارى يحدد الى أى الفريقين يكون انتماؤه • اننا نستطيع أن نقول بموضوعية أن المهندس صلاح زيتون لم يقع فى فلك تيار معين من تيارات العماره الحديثة ولم يكن أسيرا لأى منها • بل كانت له عمارته الذاتية الخاصة وان كان تأثير رايت عليه واضحا لاتخطئه العين خصوصا فى عمارته الداخلية وفى استخداماته لمواد البناء •

اذا ما اتفقنا أن عمارة صلاح زيتون هى صياغة ذاتية وليست تكرارية أو صدى لفكر معمارى اخر فلنا أن نتسائل عن طبيعة هذه الذاتية الخلاقة • حبا الله المهندس صلاح زيتون بشخصية متفردة ومتكاملة يمكن أن نرجعها الى عناصر أربع أولها قوة داخلية كبيرة Inner strength ساعدته على الاحتفاظ بذاتيته المستقلة فى كل مراحل حياته وثانيها التفكير المنطقى العقلانى الهادى Methodical Thinking وثالثها الخيال الخصب Immagination والقدرة الفائقة على الابتكار Creativity ورابعها رغبته مستمرة فى العلم والمعرفة Continuous urge for Iearning وقدرات حساسة على المشاهده والتسجيل والتحليل والاستنباط • وقد دعاه ذلك الى الاشتراك فى سبع مجلات معمارية أجنبية فى وقت واحد عندما كان شابا حديث التخرج كما دعاه الى أن يجوب الافاق فى سنواته الأخيرة بكل بقاع الارض تقريبا ليرى ويسمع طبائع الشعوب وفنونها وعلى الأخص عمارتها ويسجل جمال الطبيعة متمثلا فى بحر أو جبل أو زهره أو انسان رغم ما تحمله رحالتنا العزيز من مشقة وصعاب هو وزوجته الفاضله • ويمكن أن نلخص هذه الشخصية فى تعبير اجتماعى ذائع وهو انه Inner directed personality وليس outer directed personality بمعنى أنها شخصية تتحرك ذاتيا من داخلها ولاتوجهها عوامل خارجه عنها •

عند الحديث عن العمارة التى تركها لنا صلاح زيتون • لنا بداية أن نتسائل هل هذه العمارة وليدة Spontanious Creativity الخلق الفطرى أم أنها وليدة الفكر المنطقى المنظم Methodical thinking وبالنظرة المتأملة لهذه العمارة نجد أن المهندس صلاح زيتون كان يملك باقتدار ناصية الاثنين ففى بعض أعماله يغلب الخلق الفنى مثل المبانى السكنية والفيلات على وجه الخصوص وفى بعض الأعمال الأخرى يغلب الفكر خصوصا المبانى العلمية كالعديد من المستشفيات التى قام بتصميمها ومبنى هيئة بحوث البناء الذى تشرفت بالعمل فيه بعض الوقت •

وبمعنى اخر فقد أمكنه دمج المنطق Rationality مع الاحساس الفنى المرهف حتى لانستطيع أن نقرر فى بعض الأحيان هل عمارته "منطق جميل أم جمال منطقى" Beautiful rationality or Rational Beauty وقليل من المعماريين أمكنهم أن يحققوا هذا الاندماج العضوى بين محورى التعبير

الانسانى بل أن قليلين هم الذين أمكنهم تحقيق ذلك فى مجالات الابداع الأخرى مثل الرسم والموسيقى والأدب.
ان المبنى فى عمارة زيتون ليس مجموعة من الأجزاء الصغيرة "الموزاييك" وضعت بجانب بعضها البعض وأخذت تنمو فى تشكيل جميل الى أن أخذت شكلها النهائى بل انى أعتقد أن العمارة بدأت لديه بتخيل لها فى صورتها الكلية In its totality وأخذت تسير بتدرج الى تفاصيلها الصغيرة . هذا يفسر لنا هذا الاحساس الدفين بالوحده الكامنة Latent Unity فى عمارته والتى تجعل من الجزء بعضا من الكل ومتمما له دون فاصل أو حاجز بينهما . فالمبنى بعبارة أخرى ليس مجموعة من التقسيمات وضع بعضها بجانب بعض أفقيا وبعضها فوق بعض رأسيا بل هناك وحدة عضوية فى الشكل والمضمون بين كافة عناصره .

واذا كانت هناك مدرسة معمارية سادت بما قد يسمى بالبناء الانشائى Structural Clarity فانى أعتقد أن مدرسة صلاح زيتون - اذا جاز لنا أن نطلق عليها ذلك - سادت بالبناء المعمارى Architectural Clarity فكل خطLine وكل سطح Plane وكل Texture له معناه وله مكانه ودوره فى التكوين السيمفونى المعمارى . لقد جاءت هذه العمارة خالية من التراكمات "التأثيرية" والتى تضاف عادة ليكون لها تأثيرات اضافية جانبية . بل انها عمارة بسيطة أشد ماتكون البساطة فكل عنصر بها وضع مكانه بمقدار . لذلك فقد جاءت القيم المعمارية التى عبر عنها المبنى من اتزان وبساطة وجمال ،جاءت قيم كامنه تحس بها قبل أن تسمعها أو تراها ، اتزان وبساطة وجمال فى التكوين من الخارج واتزان وبساطة وجمال فى الفراغ من الداخل .

وعادة ماتدور العناصر المعمارية وبنساب الفراغ الداخلى فى تكامل وتوافق حول محور واحد وبنى Core وغالبا مايكون هذا المحور هو لب الفكرة المعمارية مثل الفناء الداخلى فى حالة مركز بحوث البناء أو المدفأة وما حولها فى فيلاته بالمعادى . وقد استخدمت باقتدار كبير مواد البناء فى الداخل والخارج خصوصا الطوب والحجر والخشب على طبيعتها Materials were used in their nature لكى تحقق الفكرة المعمارية وتضيف اليها حيوية Vitality وعمق Depth . ونكاد نلمس بصمات رايت على الاسلوب الذى استخدمت به هذه المواد .

وأخيرا فان انسانيه صلاح زيتون انعكست على عمارته فكل ما فيها يخاطب الوجدان ، ذلك لأنها عماره حانيه كريمه .

هذه بعض ملامح العمارة التى تركها لنا صلاح زيتون . وقبل أن أختم هذا الحديث أود أن أقول أنه كان له بعدا انسانيا عرفه كل من عمل معه ، فقد كان حريصا على أن يشرك معه مساعديه من شباب المعماريين فى فكره وبرعاهم بكرم الأب والأستاذ ، فلا يوجد انسان اقترب منه ولمس ظله الا ويذكره بكل حب وتقدير .